قراءة سيميو أنثروبولوجية لمعاناة اللاجئة السورية من خلال الصورة الفوتوغرافية

الدكتورة نعيمة رحماني، والدكتورة نصيرة بكوش- جامعة تلمسان- الجزائر

الملخص:

إن كل صورة هي في الأصل حكاية تختفي في ثنايا وأحشاء هذه الأخيرة. وإن كل وضعية وكل حركة وكل إيماءة هي ممكن سردي قابل للتحقق فيما يمكن أن تنجزه عين الرائي. تنفرد الصورة بخاصية النّقل المباشر والصّادق للحدث من خلال لحظة واحدة من الزّمن. وبدون أي تعليق لأنّها لا تملك لغة تمكنها من ذلك كما هو الشأن في الخطاب المكتوب الذي قد ينقل نفس المشهد الذي تجسده الصّورة ولكن بوقت أطول وفي عدّة صفحات من الكلام والوصف، وقد يخفق بالرّغم من هذا في التصوير الدّقيق والأمين لهذا المشهد.

لهذا سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تقديم قراءة سميو أنثروبولوجية، ومحاولة العثور على معنى ورمزية الصور التي تعبر عن معاناة اللاجئة السورية. وبالتالي قراءة دلالة الكل من خلال دلالة الأجزاء المكونة له.

مقدمة

نعيش اليوم وسط عالم مليء بالوسائل البصرية والسمعية، والتي كان له الأثر الكبير في نقل المعلومات والأخبار، والكشف عما هو مستور ومسكوت عنه. ومن أهم هذه الوسائل الصورة الصحفية، وبالتحديد صورة اللاجئة السورية وهي تعاني القسوة والعنف والعذاب. ولقد قمنا بانتقاء بعض النماذج من مواقع الأنترنت محاولين تقديم بعض القراءات السيميولوجية لهذه الصور الفوتوغرافية.

لقد أفردت السيميولوجيا فرعاً لدراسة الوسائل المرئية، وهو مستقل بذاته يطلق عليه السيميوطيقا البصرية، وتفرعت عن هذه السيميولوجيا بدورها سيميولوجيا الفنون التشكيلية من رسم ونحن وانشاءات. بالإضافة الى سيميولوجيا الصورة الفوتوغرافية.[1]

إن أهم الفروع الأساسية في السيمويطيقا البصرية هي سيميوطيقا التصوير والسينما. ويعتبر التصوير الفوتوغرافي اليوم فنا قائما بذاته يحتل مكانة هامة بين الفنون التشكيلية. ولقد تسلحت الفوتوغرافيا اليوم بإمكانات تكنولوجية ضخمة، حيث وضعت في يد الفنان وسائل للتعبير المرئي تعبيرا مشبعا بدلالات لم تختبر من قبل، فهي تكشف عن نواح من الحياة البشرية لم يكن من الممكن التوصل اليها.[2]

I الشبكة المفاهيمية

1) مفهوم الصورة:

هي كلمة يونانية مكوّنة من شقين photo بمعنى ضوئي و Graphis بمعنى إبرة أو فرشاة، أو رسم، وgraphe بمعنى تمثيل خطّي، أو رسم والمراد به التشكيل بواسطة الضوء، أو التسجيل بواسطة الوسائط الكيميائية والميكانيكية على شكل صورة دائمة يتكوّن على طبقة من مادّة حسّاسة للضّوء[3]

2) مفهوم الصورة الصحفية الفوتوغرافية:

يعرفها الباحث أدهم محمود قائلا: "هي تلك الصورة الفنية، البيضاء أو السوداء، أو الملونة، ذات المضمون...الواضح والجذاب، المعبرة وحدها او مع غيرها في صدق وامانة وموضوعية عن الأحداث، أو الأشخاص، أو الأنشطة، أو الأفكار، أو القضايا، أو النصوص والوثائق، أو المناسبات المختلفة المتصلة غالبا بمادة تحريرية معينة

1 سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل الى السيميوطيقا، دار التنوير للطباعة والنشر، مصر، 2014، ص409.

2 المرجع نفسه، ص410.

3 بشير خلف، بحث في أبعاد الثقافة العمالية لدى عمال المؤسسة الوطنية للنسيجية – رسالة لنيل شهادة الماجستير – مكتبة معهد الثقافة الشعبية – جامعة تلمسان 1991-1992-، ص 66.

تنشرها. أو تكون صالحة للنشر على صفحات جريدة او مجلة او توزعها وكالات الأنباء، او صور على سبيل التأكيد والتوضيح والتفسير والدعم والاضافة ولفت الأنظار وزيادة الاهتمام والقابلية للقراءة والامتاع، والمؤانسة وزيادة التوزيع، وكمعلم وركيزة اخراجية تلتقطها عدسة مصور بطريقة تعكس حساً فنياً اتصالياً وفعماً لوظيفتها وغالباً ما تكون إخبارية،

أو تسجيلية، أو تفسيرية، أو جمالية، أو وثائقية..."[4]

ومع اختراع التصوير الفوتوغرافي اليوم أصبح بالإمكان اليوم انتاج صورة تشبه الواقع كثيرا حيث أصبحت الصورة الفوتوغرافية وسيلة عالمية للإعلام، تستعمل كل يوم في الصحف، لكن كون هذه الصورة شبيهة بالواقع لا يعني انه من الضروري ان تعطي معلومات حقيقية. فمثلا تستطيع الصور الفوتوغرافية ان تكشف او تستر أشياء، لهذا من المفيد تحليلها كما نحلل الكلام او الكتابة سواء بسواء. [5]

وكان لوران بارث من الأوائل الذين اهتموا بالصورة، وهو يدعو الى النظر الى النص البصري (الصورة) على انه مخزون من الاحتمالات الدلالية ذات المعنى، وبالتالي فالسيميائية كما نعلم هي البحث عن الدلالة وتأويلها. كما أوضح شولز ان السيميائية يقصد بها استكشاف العلاقات الدلالية غير المرئية في النص البصري (الصورة) والوقائع والأحداث البصرية من خلال التجلي المباشر لها. وسبر غورها بمعطيات النص البصري ضمن مسارات تأويلية هي من انتقائه وافتراضاته. وهذا ابداع فعلي وليس نظري.[6]

3) قراءة الصورة ومستويات التلقي:

4 محمود أدهم، مقدمة الى الصحافة المصورة، الصورة الصحفية وسيلة اتصال، ط1، مطابع الدار البيضاء، 1998، ص22.

5 خواني زهرة، الصورة الفنية وانواعها، ملف الترشح للتأهيل الجامعي، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، السنة 2015-2016، ص350.

6 المرجع نفسه.

إن قراءة الصورة عملية تتوقف على مجموعة من العوامل والمتغيرات المرتبطة بها، لأنها عملية مركبة تشمل العديد من العمليات العقلية، كما ان لها مستويات. لأن عملية قراءة الصورة ما هي الا عملية فك رموز شفرة الرسالة وصولا الى المعنى. وتشمل عملية فك الرموز خطوتين مهمتين هما؛ التمايز والتفسير. وتوجد عدة تصورات لمستويات قراءة الصورة والرسوم. حيث يحدد بيترسون Petersson 1996 ثلاثة مستويات؛

1- الترجمة؛ أي تحويل الصورة الى وصف لفظي، وهذا يقابل مستوى الوصف عند غيره.

2- مستوى التفسير.

3- مستوى التقويم.

ويحدد ليسي 1987Lassy اربع مستويات لقراءة الصورة وهي؛ التعرف، التحليل، التفسير، التقويم. في حين يحدد بربري 1984 Barbary[7] أربع مستويات أيضاً هي؛ الوصف والتحليل والترجمة بإيداع التفسير، والترجمة الناقدة.

4) مفهوم الفضاء:

عرف مصطلح الفضاء في السميائية مفاهيم مختلفة تتمحور حول قاسم مشترك، حيث تعتبر الفضاء من خلاله موضوعا مبنيا. إذا كانت السميائية تدج في اهتماماتها الفاعل كمنتج ومستهلك للفضاء، فان تعريف الفضاء يستدعي مشاركة كل الحواس ويضطرنا إلى إعطاء أهمية بالغة للأوصاف المحسوسة (مرئية، لمسية، حركية، صوتية، الخ). يتطابق موضوع الفضاء إذن مع سميائية العالم الطبيعي (التي لا تبحث في معاني العالم فحسب بل تبحث أيضا في دلالات السلوكات البدنية للإنسان). ثم إن اكتشاف الفضاء ليس إلا بناء بيّنا لهذه السميائية. وتتميز سميائية الفضاء ببحثها عن التحولات التي تلحق بالسميائية الطبيعية بفضل تدخل الإنسان

7 خواني زهرة، المرجع السابق.

الذي بواسطة إنتاجه لعلاقات جديدة بين الفواعل والمواضيع المصنوعة (مشحنة بقيم جديدة)أحل محلها سيميائيات اصطناعية.[8]

5) فضاء الصورة:

إن الحديث عن الفضاء سواء اكان في النص الأدبي او في المسرح، او في السينما، او في الصورة يفرض علينا الخوض في العلاقة الخفية الموجودة حتما بين اللغة والمكان، وبين الإشارة والمكان. لأن الإشارة والدلالة تلعبان دورا هاما في إيصال المعنى الموجود في الصورة. فإذا كان للقصة مثلا لغة تمكنها من طرح نفسها، فإن الصورة خلاف ذلك، أي ليست لها لغة تعبر بها عن نفسها، وإنما مجموعة من "العينات" او الإشارات والرموز التي تشكل كلا متكاملا يعرض ماهيته من تلقاء نفسه.[9]

II قراءة سيميو أأثروبولوجية لنماذج من صور معاناة اللاجئة السورية

1) **<u>الصورة الأولى:</u>**

8 رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السميائي للنصوص، دار الحكمة ،2000، ص71

9 يوسفي الزهراء، سيميائية احتفالية الزواج، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، ص81.

صورة لاجئة سورية في ألمانيا

* **المرسل**: الموقع http://www.noonpost. net

* **تاريخ الصورة**: 04 يناير 2016[10]

* **نوع الصورة:** صورة فوتوغرافية ذات بعد اجتماعي سياسي؛ إذ انها تعكس الوضع السياسي الذي تعيشه سوريا حاليا، وفي نفس الوقت تصور الحالة الاجتماعية للاجئة السورية التي حاولت ان تحمي نفسها من الاغتصاب.

أ) محاور الصورة:

تحمل الصورة مشهدين؛ الأول هو مشهد المرأة السورية، والمشهد الثاني هو يد الانسان.

بـ) مجال البلاغة والدلالة في الصورة:

تضم الصورة علامات بصرية تشكيلية، وقد تضمنت الدلالات التالية:

-**المرأة:** علامة بصرية تدل على الضياع والبؤس والخوف.

-**اللباس:** ترتدي تلك المرأة لباساً رجالياً من أجل ان تخفي أنوثتها حتى لا تتعرض للاغتصاب، التحرش الجنسي، والاعتداءات الجنسية...

-**اليد:** علامة بصرية تدل على المنع والرفض.

جـ) المعنى التقريري والمعنى التضميني:

نشرت هذه الصورة على الأنترنت، وهي تحمل معنى تضمينيا يكمن في محاولة تلك المرأة الحفاظ على شرفها كنوع من حفظ شرف الأسرة والمجتمع السوري على السوا. فالاعتداء عليها جنسيا يعني المس بكرامتها وكسر حياتها النفسية، وتحطيم فرصتها في الاندماج داخل المجتمع بشكل طبيعي وصحي. فجريمة بهذه الطريقة كما يقول الباحث الهادي العموري قد تخلف شخصية غير متماسكة لدى المرأة.[11]

10 كاترين بن هولد، محاولات الهجرة توقع السوريات فريسة الاستغلال الجنسي، مقال نشر بتاريخ 04 يناير 2016 استخرج من الرابط http://www.noonpost.net

11 الهادي العموري، الأسرة، المرأة والقيم، افريقيا الشرف، المغرب، 2013، ص112.

لقد خلقت ظاهرة الاعتداء الجنسي على اللاجئة السورية آثارا خطيرة جعلتها تعيش حياة صعبة، وتعاني من أزمة نفسية. حيث صرحت السيدة سوزان هونة وهي مشرفة المعالجين النفسيين ومتخصصة في علاج المهاجرات المصابات بصدمات نفسية؛ صرحت بان اغلب النساء اللواتي يخضعن لرعايتها تعرضن للعنف الجنسي، علما ان بعضهن بلغن سن الرشد، وبعضهن من تجاوزن ال 60سنة.[12]

د) حوصلة وتقييم:

تمثل هذه الصورة رسالة إعلامية موجهة إلى الرأي العام العالمي لتحسيسه بالوضع وإعلان ما يمارس ضد المرأة اللاجئة السورية من عنف جنسي ونفسي.

2) الصورة الثانية:

صورة امرأة سورية تنهار على ساحل جزيرة ليسبوس بعد عبورها لبحر إيجه

***المرسل:** الموقع http://www.trtarabic.tv

***تاريخ الصورة:** 28 سبتمبر 2015 [13]

12 كاترين بن هولد، مرجع سابق.

13 في اليوم العالمي للمهاجرين.. لاجئو سوريا في صور وُصفت بأنها الأقوى خلال العام، مقال استخرج من الرابط http://www.trtarabic.tv بتاريخ 2016/04/25

***نوع الصورة:** صورة ذات بعد اجتماعي وسياسي، فهي تعكس لنا ما تعانيه اللاجئة السورية من عذاب وألم وخطر. خاصة وهي تهرب من الحرب الى البحر.

أ) محاور الصورة:

تحمل الصورة اربعة مشاهد؛

1- المشهد الأول يمثل البحر.

2- المشهد الثاني يمثل الزورق.

3- المشهد الثالث يمثل المرأة السورية (اللاجئة).

4- المشهد الرابع يمثل اللاجئين المرافقين لها والمساعدين عند الساحل.

بـ) مجال البلاغة والدلالة في الصورة:

تضم الصورة علامات بصرية تشكيلية، وقد تضمنت الدلالات التالية:

البحر: وهو الفضاء الشاسع الواسع الغامق والعميق في الصورة، وليس المقصود في أن نحدد جغرافيته وإنما ان نقدم الصور البلاغية التي يوحيها المكان، ودورها في رسم الحالات النفسية والاجتماعية للأشخاص. كأن نحدد مثلا حالة الخوف والرهب من تلاطم أمواج البحر العاتية التي اغرقت الكثير من اللاجئين من قبل. فبمجرد التفكير في مصير السابقين تعتري تلك اللاجئة حالة نفسية صعبة ورهيبة تؤثر عليها آنياً ومستقبلاً.

لكن إلى جانب هذا المعنى يتجلى معنى آخر لفضاء البحر فهو يشكل مكان انتقال من الحرب الى السلم، ورمز نجدة للاجئة.

الزورق: علامة بصرية، وهو وسيلة من وسائل التنقل، فبواسطته انتقلت المرأة السورية اللاجئة وطفلها إلى عالم آخر هروبا من ويلات الحرب والدمار والخراب والقتل في سوريا.

المرأة: ان الحديث عن فضاء الصورة يقودنا الى الحديث عن مختلف عناصرها، ومن بين تلك العناصر؛ المرأة باعتبارها منه ومكملة له. فالمرأة تبدو في الصورة في حالة مضطربة ومرتبكة وهي خارجة من البحر.

الأشخاص: يمثلون اللاجئين السوريين الذين عانوا نفس الويلات، والمساعدين الذين يقدمون يد العون من اجل التخفيف من معاناتهم.

جـ) المعنى التقريري والتضميني:

تحمل هذه الصورة الكثير من المعاني، فهي تعبر عن العذاب والآلام الذين تعاني منهما اللاجئة السورية خاصة الجانب النفسي. ولعل هذه الصورة من بين اقوى واشد الصور التي تصور معاناة اللاجئة السورية على كل المستويات وانهيارها الكلي. فهي تترك في نفسية المشاهد أثرا بالغا.

3) الصورة الثالثة:

مجموعة من السوريين يحاولون العبور السياج الفاصل بين صربيا وهنغاريا

*المرسل: من الموقع http://www.trtarabic.tv

***تاريخ الصورة:** 27 أغسطس2015 [14]

***نوع الصورة:** صورة فوتوغرافية ذات بعد اجتماعي وسياسي. فهي تعكس الوضع السياسي الذي تعيشه سوريا من دمار وحرب وخراب، الأمر الذي جعل الكثير من العائلات تضطر للانتقال إلى أوروبا بحثا عن الهدوء والسلام والطمأنينة حتى وان كانت مؤقتة. أما البعد الاجتماعي فيتمثل في معاناة تلك الأسر السورية وهي تحاول ان تعبر تحت الأسلاك الشائكة لتنجو بنفسها وبأطفالها.

ا) محاور الصورة:_

تحمل الصورة مشهداً يضم أفراد الأسرة الواحدة وتتكون من الأب والأم والطفلين، بحيث يقتحمون فضاء تحيط به الأسلاك.

بـ) مجال البلاغة والدلالة في الصورة:

تضم الصورة علامات بصرية، وقد تضمنت الدلالات التالية:

الرجل: علامة بصرية تدل على تزعمه السلطة والقرار، فهو من قرر العبور تحت الأسلاك من أجل الدخول الى أوروبا لتعيش عائلته في أمان.

المرأة: علامة بصرية تدل على الطاعة وتنفيذ الأمر رغم كل المخاطر التي تتعرض لها، مثل الجروح التي قد تتأثر بها بسبب الأسلاك الشائكة.

الطفل والطفلة: علامة بصرية تشير الى الخوف من العالم المجهول الذي ينتظرهم، والدليل على ذلك البكاء في الصورة.

السلك الشائك: علامة بصرية تشير الى الهلاك والموت والعزلة والفصل بين الفضاءات.

جـ) المعنى التقريري والمعنى التضميني:

14 في اليوم العالمي للمهاجرين.. لاجئو سوريا في صور وُصفت بأنها الأقوى خلال العام، مقال استخرج من الرابط http://www.trtarabic.tv بتاريخ 2016/04/16

تمثل هذه الصورة بكل عناصرها وفضائها تضحية المرأة السورية اللاجئة في سبيل نجاة عائلتها. والاشارة واضحة في الصورة وهي حماية المرأة اطفالها من الأسلاك الشائكة، فهي في الأعلى تلامس الاسلاك وطفليها تحت صدرها حتى لا يمسهما الأذى، ولكي تتخطى الأسرة ذلك الحاجز بحثا عن السلم من ويلات الحرب.

د) حوصلة وتقييم:

تمثل هذه الصورة رسالة إعلامية واضحة موجهة إلى الراي العام العالمي، وهي تدلي بصبر اللاجئين السوريين على المحن، وقوتهم وعزمهم على النجاة رغم كل المخاطر والعوائق التي يصادفونها في طريقهم بحثا عن السكينة والهدوء والسلم.

خاتمة

من خلال قراءتنا السيميو انثروبولوجية لمعاناة اللاجئة السورية خرجنا ببعض النتائج كالتالي:

– تعد الصورة من أهم وسائل الاتصال التي تساعد على توطيد العلاقات الإنسانية، وتنمية الحس الجماعي والاحساس بآلام الاخرين.

– تمثل الصورة الفوتوغرافية وسيلة الإعلان والاخبار عما تعانيه اللاجئة السورية من ظلم وعذاب وخوف وقهر قد تعاني منه مدى الحياة.

–تقوم الصورة الفوتوغرافية بنقل الحداث والوقائع بصدق وفي لحظة واحدة من الزمن، وبدون أي تعليق لأنها لا تملك لغة تمكنها من ذلك كما هو الشأن في الخطاب المكتوب الذي ينقل نفس المشهد الذي تجسده الصورة الفوتوغرافية، ولكن بوقت أطول وفي عدة صفحات من التعبير والوصف.

قائمة المراجع:

1. بشير خلف، بحث في أبعاد الثقافة العمالية لدى عمال المؤسسة الوطنية للنسيجية – رسالة لنيل شهادة الماجستير – مكتبة معهد الثقافة الشعبية – جامعة تلمسان 1991-1992-، ص 66.
2. خواني زهرة، الصورة الفنية وانواعها، ملف الترشح للتأهيل الجامعي، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، السنة 2015-2016، ص350.
3. رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السميائية للنصوص، دار الحكمة ،2000، ص71
4. سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل الى السيميوطيقا، دار التنوير للطباعة والنشر، مصر، 2014، ص409.
5. في اليوم العالمي للمهاجرين.. لاجئو سوريا في صور وُصفت بأنها الأقوى خلال العام، مقال استخرج من الرابط http://www.trtarabic.tv بتاريخ 2016/04/25
6. كاترين بن هولد، محاولات الهجرة توقع السوريات فريسة الاستغلال الجنسي، مقال نشر بتاريخ 04 يناير 2016 استخرج من الرابط http://www.noonpost.net
7. محمود أدهم، مقدمة الى الصحافة المصورة، الصورة الصحفية وسيلة اتصال، ط1، مطابع الدار البيضاء، 1998، ص22.
8. الهادي العموري، الأسرة، المرأة والقيم، افريقيا الشرف، المغرب، 2013، ص112.
9. يوسفي الزهراء، سيميائية احتفالية الزواج، رسالة ماجستير، جامعة ابي بكر بلقايد، ص81.